الفصل الثالث

الاتجاهات السائدة فى كتابة التاريخ فى العصر الحديث

- تطور الدراسات التاريخية .
- تطور علم التاريخ خلال العصر الحديث .
- إدوارد جيبون ، ودوره فى تطور علم التاريخ فى الغرب .
- معاصرو جيبون .
- ليوبولد فون رانكه ومدرسته .

obeikandl.com

obeikandl.com

الاتجاهات السائدة فى كتابة التاريخ

فى العصر الحديث

تطور الدراسات التاريخية :

يتحدث علماء التاريخ فى الغرب عن طفرة الدراسات التاريخية فى العصر الحديث، ويرجعون بهذه الطفرة إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، عندما فتحت دور المحفوظات الأوربية أبوابها لأهل العلم، فأخذوا يستخرجون كنوزها وينشرونها على الناس، فكانت هذه الثروة الضخمة حافزاً للكثيرين على الاتجاه نحو دراسة التاريخ على أساسها، ومن ثم حدث ما يسمى عادة بالانفجار الواسع المدى فى الدراسات التاريخية.

وسنرى فى الفقرة التالية كيف ظهرت مجموعات الوثائق الكبرى، ووضعت مقاييس دراستها دراسة علمية دقيقة على يد أقطاب العلم التاريخى من أمثال ليوبولد فون رانكه ، ولكننا سنمر هنا مسرعين بأهم تيارات الدراسات التاريخية فى عصرنا وقبله بقليل.

ساد فى الغرب الأوربى خلال القرن التاسع عشر تياران رئيسيان :

الأول: تيار الواقعية الموضوعية Objective Empiricism، الذى يقول أصحابه بأنه من الممكن أن نكتب الحقائق التاريخية بالضبط كما كانت فى الماضى.

الثانى : تيار القائلين بتوالد أحداث التاريخ بعضها عن بعض The Genetic View of History وأصحابه ـ الذين كانوا يستعملون ذلك المصطلح البغيض: الهيستوريسيزم Historicism ، أى: التأريخية ـ يرون أن التاريخ عملية توالد مستمرة، ويؤمنون باضطراد التوالد من عصر إلى عصر .

وكلا التيارين ثمرة من ثمرات تلك الثقة البالغة فى النفس التى ملأت نفوس أهل العلم فى الغرب فى القرن التاسع عشر ، حتى ليشعر من يقرأ لهم أنهم كانوا

يحسبون أنهم جمعوا العالم كله من أطرافه جميعاً . ويدخل فى هذا النطاق أيضاً فريق التقريريين المقننين أو الإيجابيين من المؤرخين Positivist Historians، أولئك الذين حسبوا أنهم يستطيعون أن يوجزوا التاريخ كله فى سلسلة من القوانين العامة. ويمكننا أن ندخل فى زمرة أولئك التقريريين المقننين: ابن خلدون الذى أوجز تاريخ العالم فى قانونه المشهور عن «دورة العمران» وعلى الرغم من أنه عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى فإننا نستطيع أن نضعه على رأس هذه المدرسة المهمة من علماء التاريخ .

أما مؤرخو القرن العشرين الذين يكتبون متأثرين بنظريات فرويد ، وأينشتاين، وكارل ماركس، فقد صرفوا النظر إلى حد كبير عن الموضوعية التاريخية، وابتكروا ما يعرف عادة بالنسبية التاريخية Historical Relativism وفى أيامنا هذه يتجه نفر من أكابر المؤرخين إلى صرف النظر عن النظريات والتيارات جملة، والعكوف على دراسة الحروب والانقلابات الاجتماعية كلاً على حدة، صارفين النظر تماماً عن نظرية « الاستمرار فى التاريخ » التى كانت أساساً متيناً لكتابة التاريخ أزماناً متطاولة، وسنشرح النسبية التاريخية بشىء من التفصيل فيما بعد.

وكما انصرف المؤرخون عن البحث عن قوانين وضوابط تحكم سير التاريخ فكذلك انصرفوا عن قواعد كثيرة كانت تعد إلى حين قريب من الأسس التى لا يملك أى مؤرخ أن يتخلى عنها ، مثل قولهم: «كلما قرب المؤرخ من العصر الذى يتحدث عنه كان كلامه أصدق». فقد تبين أن مسألة القرب أو البعد عن الحوادث هذه لا تعنى شيئاً كثيراً بالنسبة لصدق الفهم، وكثيراً ما نجد مؤرخاً يكتب عن عصره نفسه، وعن حوادث مرت أمام عينيه، فلم يدرك من حقيقتها شيئاً، وجاءت روايته هى الغباء بعينه. وفى نفس الوقت نجد مؤرخاً يكتب عن نفس الحوادث، بعده بعدة قرون، فيرى بالفهم ودقة الحس العلمى ما لم يره هذا المعاصر، وخذ مثلاً كتاب «الفتح القسى فى الفتح القدسى» الذى حاول فيه عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهانى، وصف استعادة صلاح الدين لبيت المقدس، واسأل نفسك بعد قراءته: إن كان هذا الرجل ـ الذى توفى فى (٥٩٧ هـ

١٢٠م) أى: بعد استعادة القدس بأربع عشرة سنة فقط ـ قد رأى أو فهم شيئاً. ولابد لهذا من أن نتخلى بعض الشيء عن قاعدة القرب من الحوادث هذه لأن العبرة فى التاريخ بالفهم والإدراك والإحساس. ومن دلائل ذلك أن تقرأ كتاب إدوارد جيبون عن الدولة الرومانية، فلا يخالجك شك فى أن هذا الرجل عاش فى عصور الرومان بقلبه وذهنه فعلاً وهو يكتب هذا التاريخ. وفى بعض الفقرات التى كتبها عن عصر الأنطونيين تشعر وأنت تقرأ أنك تسمع جلبة الجيش الرومانى الخارج للفتوح ، وقعقعة العجلات على صخور الطرق الرومانية، وصهيل الخيل وجلجلة السلاح ..

وفى أيامنا هذه يسلِّم المؤرخون جميعاً بأن المؤرخ مهما فعل، فهو لا يرى الماضى إلا من خلال عصره، أى أنه لا يستطيع التخلى عن مفهومات مجتمعه والآراء السائدة فيه ، وفى هذا خير كثير للتاريخ والمؤرخين، فإن المؤرخ ـ بصفته خادماً للجماعة الإنسانية ـ ينبغى أن يكتب تاريخه فى صورة ذات معنى وأهمية لأبناء عصره. وهذا المعنى وتلك الأهمية يعبر عنهما المؤرخون بما يسمى «ارتباط التاريخ بالحاضر» The Relevance of History to the Present، فإذا لم يكن الحادث التاريخى الماضى ذا ارتباط بالحاضر Relevant to the present، فلا قيمة حقيقية له، وهو أشبه بإناء قديم محطوم فى البيت كانت له أهمية فى حينه أيام كان نافعاً ، ثم تقادم به العهد وتحطم، فلم يعد أكثر من ذكرى ماضية ، ومن الصالح التخلص منه ؛ لأن هذه الذكرى نفسها غير ذات قيمة، وهنا يقول آرثر مارفيك: «وما دامت للتاريخ تلك الأهمية بالنسبة للمجتمع، **فإن أحسن تاريخ يمكن كتابته ينبغى أن يكون أقرب ما يستطاع إلى الحقيقة**، والمؤرخ الواعى للعجز المفروض عليه بسبب وضعه مكاناً وزماناً (بالنسبة للأحداث التى يؤرخ لها) ، ينبغى عليه أن يجتهد فى تلافى التشويه والتحوير اللذين ينتجان عن اختلاف الزمان والمكان»[1] .

(1) Arthur Marvic, The Nature of History. P. 21.

وقد كان لجهود أصحاب نظرية النسبية التاريخية[1] أثر طيب فى تخفيف ثقل المدرسة الألمانية التى قادها رانكه، والتى ظنت أنها تستطيع ـ اعتماداً على الوثائق ـ أن تكتب التاريخ بالضبط، كما حدث منذ مئات السنين أو آلافها. وكان من رأى أصحاب هذه المدرسة أن المؤرخ نفسه لا يقول شيئاً، وإنما هى الوثائق التى تقول كل شىء، وعلى هذا فلا فرق بين مؤرخ ومؤرخ إلا فيما يتعلق بدرجة القدرة على استخدام مناهج البحث. وهذا غير صحيح، فإن موهبة المؤرخ لا يمكن إغفالها، والمؤرخ ليس كما قال كونياردز ريد Conyards Read، رجل يقضى عمره لاهثاً بين مكتبة ومخزن الوثائق ودهاليز المخطوطات المثقلة بالغبار. ليس هذا هو المؤرخ الوحيد الجدير بالاعتبار؛ لأن المؤرخ الجيد ليس عبد الوثائق والمخطوطات، وإنما هو ناقد حصيف يختار منها ويكتب كلاماً حيّاً يخاطب عقول الناس فى كل عصر. وكم من مؤرخ كتب من عشرات السنين نحس ونحن نقرأه أنه أقرب إلى نفوسنا من مؤرخ معاصر تموت الحوادث بين يديه قبل أن يكتبها، ومؤلفاته إن هى إلا أكفان لما يكتب.

فإذا صدق هذا استطعنا أن نقول إن التأريخ ـ على الحقيقة ـ إنما هو إعادة كتابة وإعادة تفسير مستمرتان، وهذه العملية المستمرة تلقى ضوءاً على الطريق الذى نسير فيه، فنحن عندما نرى كيف كان أجدادنا أسرى أوهام عصورهم استطعنا أن نتجنب أوهام عصرنا، وفى هذه الحالة تكون دراسة التاريخ قد نفعتنا وارتفعت بمستوى إدراكنا ولو إلى حد ضئيل، ومن هنا تجىء فائدة قراءة ما كتب الماضون من صفحات التاريخ ، فإن المؤرخ الذى لا يفعل ذلك لا يقل بعداً عن المنهج الصحيح من ذلك المؤرخ الذى يقدر قيمة الكتب بدرجة صُفْرَةِ ورقِها ، ويؤمن بكل ما طبع على ورق أصفر ، لمجرد أنه أصفر.

إذن: فالتاريخ ـ كما قلنا ـ ينبغى أن يكون حواراً بين الماضى والحاضر، ولابد أن يكون كذلك حواراً بين المؤرخ وقارئه ، والكلمة الأخيرة فى تأريخ أى عصر أو أى حادث لم تُقل بعد، ولا يمكن أن تقال قط، وهذا يضع يدنا على

---

(١) هم المعروفون باسم Relativists ، وقد أشرنا إليهم .

مكمن الخطأ الأكبر فى أعمال رانكه ومدرسته، أولئك الذين بلغ بهم الغرور بوثائقهم التى اعتمدوا عليها حداً جعلهم يتصورون أنهم وصلوا إلى كبد الحقيقة فى كل ما كتبوه.

تطور علم التاريخ خلال العصر الحديث :

كل تاريخ لتطور علم التاريخ نقرأه فى كتاب غربى لابد أن يكون بالضرورة ناقصاً، إذ إن هذه الكتب تسقط من الحساب ـ كلياً أو إلى حد كبير ـ الدور الضخم الذى قام به المؤرخون المسلمون فى تطوير هذا العلم، وما نقول هذا مجاملة منا للسابقين من مؤرخينا، بل نقوله لأنه حق ، وإذا كان من الممكن الجدل فى قيمة ما وصل إليه علماء العرب فى الطبيعة والكيمياء بالنسبة لحالة هذين العلْمين اليوم، فإنه لا جدال فى أن المؤرخين العرب والمسلمين قد وصلوا فى هذا العِلْم إلى شأو يضارع أحسن ما وصل إليه الغربيون إلى أواخر القرن التاسع عشر على الأقل، بل إذا كانت مدرسة الوثائقيين وأهل التوثيق الكامل فى الغرب، وهى مدرسة ليوبولد فون رانكه، ويعقوب بوركهارت، هى ذروة ما وصل إليه العلم التاريخى فى القرن التاسع عشر، فإن مؤرخينا المسلمين بدأوا بالذات من هذه النقطة: بدأوا على طريقة المحدِّثين المدققين الذين لا يروون خبراً إلا اعتماداً على سند متين موصول من رواة ذوى صدق وأمانة، وساروا بعد ذلك على مناهج علمية جديرة بكل تقدير. ولهم ـ نتيجة لهذا ـ فضل كبير جداً فى تطوير هذا العلم، ولكن مؤرخى الغرب ساروا على مبدأ أن العلم كله غربى. وفى ميدان التأريخ يبدأون عند هيرودوت، وثوكيديدس، وينتهون عند توينبى وهويتسنجا Huitsinga ومن إليهما من معاصرينا.

ومن العسير لهذا أن نوسع فى هذه العجالة مكاناً مناسباً لما قمنا به فى تاريخ هذا العلم ، ولهذا .. فسندعه جانباً لكى نخصص له دراسة قائمة بذاتها ، ونكتفى بأن نروى للدارس العربى تاريخ هذا العلم كما يروونه فى كتب الغرب .

وقد كان من المناسب لهذا البحث أن نروى ـ فى إيجاز ـ تاريخ تطور علم التاريخ من بداياته الأولى عند هيرودوت إلى اليوم .. ولكننا رأينا أننا إذا قصصنا

هذا التاريخ بحسب المفهوم الغربى، جاءت القصة ناقصة، لأنها ـ كما ذكرنا ـ لا تحسب حساب الدور الكبير الذى قام به العرب والمسلمون فى تطوير ذلك العلم والسير به إلى الأمام، ثم إن هناك ـ خارج النطاقين الأوربى والعربى ـ مؤرخين ومدارس تاريخية لها أهميتها عند الصينيين والهنود خاصة، فإذا كان لابد من إيجاز تاريخ علم التاريخ، فلابد أن يتضمن ذلك الموجز حديثاً عن نصيب تلك الأمم فى تطوير علم التاريخ، بدلاً من الاقتصار على متابعة أهل الغرب فيما يقولونه والاكتفاء به. ومن آفات الفكر الغربى أنه لا ينظر إلا إلى نفسه ، ولا يكاد يحسب لغيره حساباً، وفى أعماق كل مفكر غربى أن الحضارة الجديرة بالاهتمام هى الحضارة الغربية وحدها، وأن الفكر هو الفكر الأوربى ولا غير، فإذا ظهر خارج النطاق الأوربى أفذاذ من أمثال ابن خلدون وطاغور مثلاً، فهذه نوادر، بل طرائف تقرأ ، ويهتم بها لغرابتها أو لطرافتها ، لا لأنها تكوِّن جزءاً أصيلاً من الخط الرئيسى.

ولهذا ـ وحتى يمكن تعديل التاريخ التقليدى لعلم التأريخ على نحو يجعله إنسانياً عاماً لا أوربياً فحسب ـ فإننا سنكتفى هنا بأن نعرض تطور هذا العلم خلال العصر الحديث من أواخر القرن الثامن عشر إلى اليوم، وهى فترة حاسمة فى تاريخ تطور التاريخ ومفهومه ومناهجه .

وإلى منتصف القرن السابع عشر، كان التاريخ فى الغرب فرعاً ثانوياً قليل الأهمية من العلم، يهتم به بصورة خاصة الرهبان وحواشى الملوك، فأما الرهبان فقد كان همهم موجهاً إلى شئون الدين وتواريخ البابوات وأخبار القديسين، وما يقال من إجرائهم المعجزات أو الكرامات، وربما أشاروا فى أثناء ذلك إلى بعض ما يهم غير رجال الدين من الأحداث. ومراكز المخطوطات فى مكتبات الغرب مثقلة بهذه التواريخ التى كتبها الرهبان فى صمت صوامعهم على ضوء الشموع، على سبيل التسلية أحياناً وقطعاً للوقت، وهروباً من الملل، وتقربًا إلى الله فى أكثر الأحيان.

ومعظم هذه المدونات مكتوب باللاتينية، والقليل منها بلغة أهل البلد من

فرنسية أو ألمانية أو إنجليزية وما إليها ، ولكنها كلها تشترك فيما يسودها من ثقل وتشابه وإيمان بالخوارق والمعجزات ، وقلة ما يجده المؤرخ فيها من مادة تاريخية نافعة .

وأما ما كتبه حواشى الملوك من سير سادتهم، وما قاموا به من أعمال فأكثر قيمة من الناحية العلمية، وإن كان يغلب عليها الملق والمبالغة والأكاذيب، ولكنها على أى حال تضم مادة تاريخية يمكن استخلاص حقائق نافعة منها بعد جهد قليل أو كبير.

والخلاصة هنا أنه لم يكن فى الغرب إلى ذلك الحين شيء يمكن تسميته علم التأريخ ، إنما كانت هناك المدونات Cronica التى ذكرناها وبينّا قلة قيمتها كأصول تاريخية ، وفيما عدا مؤرخى العصور القديمة ما بين إغريق ورومان من أمثال: هيرودوت، وثوكيديدس، وبوليبيوس، وتيتوس ليفيوس، ومارسيلوس أميانوس، لم يكن هناك إلا أصحاب مدونات أشهرهم رجال ، مثل: إجينارت Eginhardt، مؤرخ شارلمان، وفرواسار Froissart ودى جوانفيل Dejoinnville اللذين أرّخا لبعض الحملات الصليبية .

ولهذا فعندما نشر فولتير مؤلفه الأول فى التاريخ عن حياة وأعمال شارل الثانى عشر ملك إسكنديناوة وحروبه مع الروس Historie de Charles XII سنة ١٧٣١م، رأى الناس فيه لوناً جديداً من التاريخ لم يعرفوه إلى ذلك الحين، فعلاوة على تحقيق فولتير لأعمال هذا الملك الإسكنديناوى الشاب، واجتياحه للقوات الروسية كأنه شهاب ثاقب، معتمداً فى ذلك على دراسة، نستطيع أن نصفها بأنها وثائقية، نجد أن فولتير عرف كيف يتأنى فى الحكم ويحسن المقارنة بين ذلك الملك الشاب المغامر ومنافسه العنيد بطرس الأكبر قيصر الروس. فقد رأى فولتير أن شارل الثانى عشر، برغم انتصاراته العسكرية ، شاب منهور مخرب، فى حين أن بطرس الأكبر ـ برغم قسوته وعنفه ـ رجل مصلح استطاع أن ينشئ إمبراطورية شاسعة متحضرة، وأيد فولتير بعد ذلك ملكته التاريخية فى كتابه البديع «خطابات فلسفية» Lettres Philosophiques الذى يدخل فى نطاق المؤلفات

الفلسفية، ولكنه حافل بالآراء والملاحظات على مسار التاريخ وتصاريف الزمان. وبعد ذلك بست سنوات نشر فولتير كتابه المشهور عن عصر لويس الرابع عشر Le Siècle de Louis XIV الذى أبدى فيه براعة فائقة فى تحليل الأحداث والأشخاص ، وأعطى للمرة الأولى فى تاريخ الفكر الغربى الحديث صورة بديعة لعصر اشتهر بما زانه من مظاهر الحضارة ، وقد أغراه نجاح كتابه هذا بالتفكير فى كتابة تاريخ عالمى ، ولكنه لم يستطع السير فى عمل ضخم كهذا ، واقتصر على تحرير خلاصة صغيرة أسماها :

«مقال عن الأخلاق والعادات» Essai sur Les Moeurs وهو كتاب طريف يجد المؤرخ لذة فى قراءته، نظراً لما فيه من محاولة التعمق فى فهم الجماعة البشرية وتركيبها ، وبعض صفحات هذا الكتاب تذكّرك أحياناً بصفحات مما كتب المسعودى فى «مروج الذهب»، وأحياناً أخرى بما أورده أبو حيان التوحيدى فى «الإمتاع والمؤانسة».

ولهذا كله يميل الكثيرون من المؤرخين إلى اعتبار «فولتير» مؤسس العلم التأريخى بمفهومه الحالى فى الغرب ، ولكن فولتير لم يكن على الحقيقة مؤرخاً، وإنما كان من هواة التاريخ، وقد كتب التاريخ على أنه لون من الأدب أو الفلسفة ، وهو يمثل القمة التى وصل إليها لون من ألوان الفكر الغربى نشأ فى عصر النهضة ..وجمع أصحابه فى مؤلفاتهم أطرافاً من الفلسفة وأخرى من التاريخ، وأضافوا إلى ذلك فيضًا من التأملات والآراء الصائبة أو غير الصائبة.

ولا بأس هنا من الإشارة إلى بعض كتّاب عصر النهضة، هؤلاء ممن صدرت عنهم مؤلفات أصبحت فيما بعد من ذخائر المكتبة التاريخية ، وأولاهم بالتنبيه هنا نيقولو ميكيافيلى Niccolo Machiavelli (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧م)، صاحب كتاب «الأمير» المشهور، وهو كتاب فلسفة وسياسة فى ظاهره، ولكنه قائم فى صميمه على فهم سليم للتاريخ، وخاصة لتاريخ إيطاليا فى عصره، وهناك أيضاً فرانشيسكو جيشياردينى Francesco Guicciardini (١٤٨٣ ـ ١٥٤٠م)، الذى كتب تاريخاً لإيطاليا لا يخلو من تعمق ونظر تاريخى.

وليوناردو برونى Leonardo Bruni (١٣٧٤ ـ ١٤٤٤م) ، صاحب كتاب «تاريخ فلورنسا» Storia Fiorentini الذى يعد من أحسن المؤلفات التاريخية التى خلَّفها عصر النهضة.

وقريباً منه ذلك الكتاب الذى ألفه السير والتر رالى Walter Raleigh وسماه «تاريخ العالم» History of the World ، ونشره سنة ١٦١٤م، فلم يلق كبير نجاح برغم أنه لا يخلو من قيمة علمية.

وفى نفس الوقت كان نفر من الرهبان فى الأديرة يحاولون الخروج من سآمة المدونات التاريخية، والبحث عن طرق جديدة لدراسة التاريخ، وفهمه، وقد التفت بعضهم إلى أهمية مجموعات الوثائق المكدسة فى الأديرة ، وإمكان استخدامها كمادة تاريخية، إذا هى درست الدراسة العلمية الكافية، وأهم هؤلاء الرهبان هم : البندكتيون فى دير سان مور Saint Maure فى فرنسا، ويشبههم فى ذلك نفر من رهبان الجيزويت فى بلجيكا، على رأسهم الراهب المؤرخ المشهور يوحنا بولاند Jean Bolland (١٥٩٦ ـ ١٦٦٥م)، الذى أصبح عَلَماً على مدرسة جديدة فى دراسة الأديرة واستخراج المادة التاريخية منها، ولا زالت جمعية البولنديين Les Bollandistes إلى يومنا هذا من أكبر الجمعيات التاريخية وأكبرها مكاناً من احترام الناس ، وقد أدت دراسات أولئك الرهبان إلى الكشف عن حقائق أزالت من النفوس كثيراً من الأوهام، ومن ذلك ما كشف عنه الراهب فالا Valla (١٤٠٧ ـ ١٤٥٧م) من أن الوثيقة المشهورة المسماة «هبة قنسطنطين» Donatio Constantini التى كانت تعتبر مقدسة، لأن البابوات كانوا يقولون إن الإمبراطور قنسطنطين الكبير وهب فيها أراضى إيطاليا للكرسى البابوى، على اعتبار أنها إرث الرسول بطرس أخذه عن السيد المسيح مباشرة ، فقد أثبت هذا الراهب أن هذه الوثيقة زائفة، وأن رجال الكنيسة زيفوها، ووضعوا عليها خاتم قنسطنطين ، وأن السيد المسيح لم يمنح الحوارى بطرس شيئًا فى إيطاليا أو غيرها. وقد أحدث هذا الكشف زلزالاً عنيفاً فى أوساط العلم والسياسة والدين فى أوربا ، وهوجم الراهب فالا هجوماً عنيفاً.

وكان هذا النجاح الذى لقيه فالا مُغرياً للكثيرين من الرهبان على الانكباب على مجموعات الوثائق التى تحت أيديهم، فأقبلوا يدرسونها ويمحصونها، فبدأت أصول علم الوثائق تظهر، وهو العلم الذى عرف فيما بعد باسم الباليوجرافيا Paleography، ووظيفته دراسة الكتابات والمخطوطات، وتفرع عنه علم النقوش المعروف باسم الإبيجرافيا Epigraphy، ووظيفته دراسة النقوش والرسوم على الأحجار وغيرها وتفسيرها واستخراج المادة التاريخية منها، ثم لم يلبث أن ظهر علم الآثار أو الأركيولوجيا Archeology، ووظيفته دراسة كل ما خلفته العصور الماضية من الأبنية وما عليها من الكتابات أو أشياء مصنوعة أو أدوات أو قطع أو نقوش أو بقايا عمران.

وهكذا .. وشيئاً فشيئاً من أوائل القرن الثامن عشر أخذ العلم التأريخى يستقر على قواعد وأصول فنية علمية خرجت به ـ شيئاً فشيئًا أيضاً ـ من مجال الأدب والفلسفة والتأملات وأساطير القديسين ومدائح الملوك إلى أرض العلم الصلبة، وولد علم التاريخ فى الغرب، ونضع خطاً عريضاً تحت عبارة «فى الغرب» لأن التاريخ عندنا ـ معاشر العرب ـ ولد من أول الأمر علماً دقيقاً قائماً على النقد والتحقيق، فإن شجرة التاريخ عند العرب نبتت فى تربة علم الحديث، وعلم الحديث علم يقوم على الدقة والتحرى والضبط بالنسبة للحديث المروى، وعلى نقد الرجال ـ وهو علم الجرح والتعديل ـ فيما يتصل برجال السند، وهم قواعد الرواية وعمدها.

وقد ارتبط ميلاد هذا العلم التأريخى فى الغرب بأسماء لا زلنا نقرأ مؤلفات أصحابها بإجلال عميق: هناك دوشسن Duchesne ، الذى كتب تاريخاً ضخماً للكنيسة الكاثوليكية تحرى فيه الدقة والصدق، وتسلح بشجاعة نادرة، كشف بها عن مساوئ الكثير من البابوات وزيف بعض كبار الرهبان، وبالوز Baluze، ومابيون Mabillon، ومونفوكون Montfaucon، الذين أقبلوا على دراسة مجموعات الوثائق المحفوظة فى الأديرة والبلديات وخزائن الدولة، واجتهدوا فى جمع ما لدى الأفراد من وثائق لإيداعها فى المكتبات الوطنية، وجعلها فى متناول الناس.

إدوارد جيبون ودوره فى تطور علم التاريخ فى الغرب :

معاصرو جيبون :

ووسط ذلك الحماس للتاريخ والاهتمام بجعله علماً محترماً ، ظهر إدوارد جيبون Edward Gibbon (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤م) ، الذى يعتبر من أعاظم المؤرخين وأساتذة هذا العلم على مر العصور، برغم أن كتابه الأشهر: «تاريخ اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها» The History of the Decline and Fall of the Roman Empire حافل بوجوه النقص، ولكنه عمل علمى رائع، كتبه صاحبه عن إيمان عميق بأهمية ما يعمل، وأنفق فى كتابته معظم سنوات عمره تقريباً،كما فعل مؤرخنا العظيم أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى، ومهما تقادم به العهد فسيظل دائماً من درر المكتبة التاريخية فى كل عصر ولغة ومكان. **ولقد قال المؤرخ الإنجليزى الأشهر ج. ب. بيورى** J. B. Bury: **«إنك لن تكون مؤرخاً حتى تقرأ جيبون»**، وهى قالة حق ؛ لأن جيبون عاد بالفعل بنفسه إلى أيام الدولة الرومانية، وقرأ كل ما تيسر له من كتابات أهلها، وكتب تاريخاً لها لا يملُّ الإنسان من قراءته. وأذكر أننى فى سنوات الدراسة الأولى فى جامعة القاهرة كنت أحفظ عن ظهر قلب تقريباً أربعة فصول من كتاب جيبون هذا، نشروها فى طبعة ميسَّرة للطلاب هى الفصول الخاصة بعصر الأنطونيين The Age of the Antonines.

وأجمل ما فى جيبون أنه كان رجلاً ميسور الحال طول حياته، وكان فى صباه مبتلى بالأمراض، مثقلاً بالمتاعب بسبب إهمال أمه إياه، ولكنه كان إنساناً غنى النفس ذكى القلب، فهذا الصبى الذى لم تمكّنه صحته من الدراسة المنتظمة إلا بعد أن أدرك سن الرشد وتخطى مرحلة الصبا، لم يلبث أن قرر ـ بعد تفكير طويل ـ أن يتخلى عن العقيدة الإنجليكانية ويعتنق الكاثوليكية. وهو أمر أفزع أباه؛ لأن معناه حرمان ابنه ـ ما عاش ـ من الوصول إلى أى وظيفة محترمة فى الدولة، أو مكانة مرموقة فى المجتمع . ولكن إدوارد جيبون سار فى طريقه غير هيَّاب، وعندما أبعده أبوه إلى جنيف ـ حتى يعود إلى عقله ويترك الكاثوليكية ـ أقبل على دراسة الفرنسية، وبرع فيها، وأخذ يؤلف بها، واتصل بفولتير وأصحابه، وأصبح

شخصية لها مكانتها، وأقبل على قراءة الآداب اللاتينية فى نهم بالغ. وعندما اشتركت إنجلترا فى حرب السنين السبع دخل الجيش، ووصل إلى درجة كابتن، ثم ذهب إلى باريس سنة ١٧٦٣م وتعرف على الموسوعى الأشهر ديدرو Denis Didérot وصاحبه دالامبير Jean d'Alambert، ثم ذهب إلى إيطاليا، وفى منتصف أكتوبر ١٧٦٤م، وبينما كان يتنقل بين آثار روما، خطرت بباله فكرة كتابة تاريخ شامل للدولة الرومانية. ومن ذلك الحين إلى آخر حياته أصبح هذا التاريخ شغله الشاغل، وقد ظهر مجلده الأول فى ١٦ فبراير ١٧٧٦م، ومجلده الأخير فى ٨ مايو ١٧٨٨م، وتوفى جيبون نفسه بعد ذلك بست سنوات فى ١٦ يونيو ١٧٩٦م، وقد ترهل جسده وحطت عليه الأمراض ، وتكاثرت عليه الآلام بموت خيرة أصحابه وأصدقائه.

لا يتميز كتاب جيبون بفلسفة خاصة للتاريخ، بل إن الدقة والضبط والاستفادة الكاملة من المراجع تنقصه فى أحيان كثيرة، ولكنه كان أول غربى كتب فى العصر الحديث دراسة تاريخية لدولة كبرى، قص فيها تاريخها كاملاً، وحاول أن يستقصى أسباب ضعفها وانهيارها، وكان إقبال الناس على هذا الكتاب وتقديرهم إياه كافيًا لرفع قدر التاريخ إلى مستوى أهم فروع العلم وأجدرها بالعناية. ومن حسن الحظ أنه كان رجلاً بليغاً، فخم العبارة ، عظيم الهمة، وإن كان هو نفسه رجلاً صغير الحجم دميم الشكل ، وقد نجح إلى حد كبير فى أن يضع قارئه فى العصر الذى يتحدث عنه، حتى إنك لتسمع وأنت تقرأ وصف خروج جيش قيصر من روما للحرب قعقعة العجلات، وصلصلة السيوف، وصهيل الخيل، ولم يحاول أن يفلسف الأحداث أو أن يجهد نفسه فى البحث فيما وراءها.

والإجماع منعقد على أن تأريخه للقرون الثلاثة الأولى من تاريخ روما عمل رائع، ولكن النقد كثير لما كتبه عن تاريخ الدولة البيزنطية، أى: عن الألف سنة الأخيرة من تاريخ الدولة الرومانية، وقد سخط عليه الكثيرون لتحرر فكره وقلة إيمانه بالمسيحية، ولهذا .. كرهه وحمل عليه الدكتور صمويل جونسون وصاحبه بوزويل ، ولكن هذا بالذات أعطى ذلك الرجل الفرصة ليفهم الديانات الأخرى ؛ ولهذا .. فإدوارد جيبون من الأوربيين القلائل الذين قدّروا الإسلام، ورأوا بعض

جوانب عظمة الرسول الكريم ﷺ . وهنا نجد جيبون أوسع ذهناً وأكثر تحرراً من فولتير الذى لم يستطع ـ برغم تحرره المعروف ـ التخلص من إسار التعصب الكاثوليكى ، بل لقد حاول جيبون أن يفهم الزرادشتية والمانوية وما إليهما من العقائد غير السماوية ، وهذا فضل يذكر له .

لم يكن جيبون صاحب مدرسة فى التأريخ ـ مثل رانكه مثلاً ـ ولكنه ارتفع بالتأريخ كله إلى مستوى لم يعرفه الغرب قبل ذلك .

لقد عاش جيبون فى صميم عصر الأنوار The Enlightenment [1]، وعاصر فولتير، ومونتسكيو Montesquieu، وجان جاك روسو، وغيرهم من أعلام ذلك العصر. ويحس الإنسان وهو يقرأه أنه أكثر الجميع استنارة، لا نستثنى من ذلك جان جاك روسو. وهو دون شك أقرب إلى الروح الإنسانى، وأدق فهماً للتاريخ من معاصره الفرنسى الأسقف جاك بنين بوسويه Jacques Benigne Bossuet (١٧٢٧ ـ ١٧٩٤م) ، الذى يحتل مكاناً كبيراً بين المؤرخين بكتابه المسمى «مقال عن التاريخ العالمى Dicours sur L'Histoire Universelle»، الذى جعل الكنيسة الكاثوليكية فيه محور التاريخ الإنسانى كله ، وفسر التاريخ كله تفسيراً دينياً صرفًا، بل مسيحياً كاثوليكياً فحسب .

فى ذلك العصر ارتفع مقام المؤلفات التاريخية ، وأقبل عليها الناس، حتى إن ديفيد هيوم David Hume الفيلسوف صرف جزءاً كبيراً من وقته فى التأليف التاريخى، وألف تاريخاً لإنجلترا فى ستة مجلدات، كسب من المجلد الأول وحده ألفى جنيه، وكان مبلغاً ضخماً بحساب تلك الأيام.

ولا يمكننا أن نترك عصر الأنوار ومؤرخيه دون وقفة صغيرة عند **آدم سميث (١٧٢٣ ـ ١٧٩٠م)، الذى يعتبر مؤسساً لعلم الاقتصاد** بكتابه المشهور، عن «ثروة الأمم Wealth of Nations » ، وهو كتاب تاريخ فى صميمه وفى طريقته،

---

(١) لهذا المصطلح أسماء كثيرة ، وقد فضلت التسمية الفرنسية L'Age des Lumières، واستعملت مقابله العربى، ولم أفصّل الكلام عن هذا العصر، لأننى كتبت فيه الكفاية فى كتابى عن «الحضارة».

وفضيلة آدم سميث أنه لفت الأنظار إلى أهمية العوامل الاقتصادية فى سير التاريخ، وهى كما نعرف من أهم العوامل وأولاها بالاهتمام . ويكفى أن نذكر أن جيبون فى بحثه الطويل عن أسباب سقوط روما لم يتنبه إلى العامل الاقتصادى ، إنما تنبه إليه المؤرخون بعد أن كشف آدم سميث عن أهمية العامل الاقتصادى فى بناء الدول والجماعات ، وقد أفاض كارل ماركس بعد ذلك فى هذه الناحية ، ولكن آدم سميث يعتبر صاحب الفضل الأول فى استلفات أنظار الناس إلى أهمية العامل الاقتصادى .

وإذا كان مؤرخو القرن الثامن عشر ، وعلى رأسهم إدوارد جيبون، قد لفتوا أنظار الناس إلى أهمية دراسة التاريخ دراسة علمية وقيمتها الكبرى كدراسة إنسانية أصيلة، فإنهم برغم ذلك لم يصلوا إلى تثبيت أقدام التاريخ كعلم له أصول ومناهج مقررة فى البحث. فعلى الرغم من أن جيبون وهب حياته كلها لدراسة التاريخ فإنه ظل يعتقد أنه ضَرْبٌ من الأدب، وقال عنه إنه «أَذْيَعُ ضروب الأدب»: The most poplular of all forms of literature وهى عبارة أنكرها عليه مؤرخو القرن التاسع عشر إنكاراً شديداً. والحق أن الذى يقرأ جيبون، وفولتير ـ على أنهما أديبان ـ يقدرهما بأكثر مما يفعل من يقرأهما على أنهما مؤرخان. ومن عباراته المبدعة التى كتبها فى مقدمته لكتابه عن اضمحلال الدولة الرومانية قوله: «إن كل صفحة من صفحات التاريخ ملطخة بدماء البشر، وعنف الصراع بين الناس، وغرور النصر ، واليأس من التوفيق، وذكريات المظالم الماضية، والخوف من الأخطار المقبلة، وهذه كلها أمور تثير العقل ، ولكنها تُسْكِتُ صوت عاطفة الإشفاق»، وهذه مقالة أديب وشاعر، وليست قَطْعاً عبارة مؤرخ محترف؛ لأن المؤرخ الممارس يعرف أن هذه كلها أشياء طبيعية داخلة فى تكوين بنية الحياة على الأرض. فكما أن عالم الحيوان لا يستنكر افتراس الذئب للأرنب؛ لأن الذئب بطبيعته يعيش على الافتراس، فإن المؤرخ لا يستنكر الحروب أو المظالم أو المآسى التى ينزلها الناس بالناس، لأن هذه هى طبيعة الحياة .

ويؤخذ على مؤرخى القرن الثامن عشر ـ كذلك ـ قلة تنبههم إلى تطور الإنسان ومجتمعه ، فإنسان عصرهم فى نظرهم، هو نفس إنسان العصور القديمة دون أدنى تطور فى عواطفه أو سلوكه، ومن هنا فإنهم جميعاً يجمعون على سوء الظن بالناس وتصرفاتهم ، والسخرية من البشر وأعمالهم، وهم بهذا أقرب إلى الأخلاقيين منهم إلى العلماء أو المؤرخين المحترفين؛ ولهذا فإنهم لم يستطيعوا أن يصلوا بالتاريخ إلى مرتبة العلوم التى تدرس فى الجامعات.

ليوبولد فون رانكه ومدرسته :

ولكن وضع التأريخ هذا والنظرة إليه ، كان لابد أن ينالهما تغيير حاسم خلال القرن التاسع عشر الذى تميز بتزاحم الأحداث الضخمة التى أحدثت فى الذهن الأوربى ما يشبه الزلازل العنيفة العميقة المدى، وقد أحدث هذا الزلزال ثورة حقيقية فى كل ميادين العلوم تقريباً، وكان لابد أن يكون للتاريخ نصيب من هذه الثورة، فانتقل التاريخ من نطاق الهوايات أو الآداب إلى نطاق العلوم ذات الأصول والمناهج.

وتمثلت هذه الثورة فى ميدان التاريخ فى الحركة الشاملة البعيدة المدى التى قامت بها مدرسة برلين وطليعتها نيبوهر Niebuhr وقائدها ليوبولد فون رانكه Leopold von Ranke .

ولكن الفضل فى هذا التطور الشامل فى علم التأريخ لا يرجع إلى الألمان، بل سبقهم إليه مفكرون أوربيون آخرون:

أشهرهم جيامباتيستا فيكو Giambattista Vico (١٦٦٨ـ ١٧٧٤م)، وهو مفكر إيطالى من نابولى، تشوب تفكيره فوضى، جعلت البعض يتهمونه بالجهل، ولكن الرجل كان ذا فكر لماح مكّن له من أن ينظر فى التاريخ نظرة هى أعمق مما فعله الكثيرون من مشاهير رجال عصر الأنوار، فقد نظر إلى التاريخ نظرة عامة، وأخذه فى مجموع عصوره وقسّمها إلى ثلاث :

الأولى «إلهية» أى : العصر الذى كان الناس فيه يردون كل الحوادث إلى صنع الآلهة.

والثانية «بطولية»: كان التاريخ فيها سرداً لأعمال عظماء الرجال .

والثالثة «إنسانية» : وهى التى انتبه المؤرخون فيها إلى أن التاريخ الحقيقى هو الذى تصنعه الجماهير والشعوب.

وعلى الرغم من بساطة هذا التقسيم وسذاجته ، فإن فيكو يعتبر فى الغرب أول من نظر إلى التاريخ العالمى نظرة عامة فلسفية . لقد عاش بعد ابن خلدون بثلاثة قرون (عاش ابن خلدون فيما بين سنة ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م) ، وكان ينبغى أن يعتبر تالياً له فى سلسلة فلاسفة التاريخ ، ولكن أهل الغرب نادراً ما يفكرون تفكيراً عالمياً حقيقياً، وهم نادراً ما يوسعون لغير غربى مكاناً فى تاريخ الفكر العالمى .

ولقد كان لفيكو أثر بعيد فى أوساط المؤرخين إلى نهاية الحرب العالمية الأولى على الأقل ، وربما كان أثره مباشراً عند رجل مثل يوهان جوتفريد هيردر Johann Gottfried Herder (١٧٤٤ـ ١٨٠٣م)، الذى يعتبر بحق مؤسس المدرسة الألمانية فى علم التأريخ. كان هيردر فى أساسه أديباً وناقداً أدبياً، وتكوينه الأول لاهوتى كلاسيكى، وهو يحتل مكاناً ضخماً فى تاريخ الأدب الألمانى ، فهو صديق جيته معظم أيام عمره، وهو من مؤسسى حركة الاقتحام والاندفاع Strum und Drang ذات الأثر البعيد فى تاريخ الفكر الجرمانى، ولكنه صرف إلى التاريخ جانباً من عنايته، وألف فيه كتباً تعتبر معالم على طريق علم التأريخ الحديث، وخاصة كتابه «آراء فى فلسفة تاريخ البشر»: Ideen zur Philosophie der Geschichte der Menschheit ، ورسالته المسماة كذلك «فلسفة لتاريخ بناء الإنسانية: Auch eine Philosophie der Geschichte zur Bildung der Menschheit .

غير أن آراء هيردر فى التاريخ متناثرة فى أعماله الكثيرة فى الأدب وعلم اللغة والدراسات القديمة ، فقد كان الرجل موسوعياً بحق ، سواء فى ثقافته الخاصة، أم ميادين دراساته وتواليفه .

وتقوم فلسفة التاريخ عند هيردر على القول بأننا لابد أن ندرس الماضى

لنفهم مشاكل اليوم والغد ، وقد شابه ابن خلدون فى تشبيه الجماعات الإنسانية بالمخلوقات الحية ، وقال إن لها هى الأخرى أعماراً من الطفولة والصبوة إلى الشيخوخة ، وأبدى ذكاء بعيداً فى فهم التاريخ الأوربى المعاصر له ، وقد قال : إن المؤرخ ينبغى أن « يحس » العصر الذى يؤرخ فيه إحساساً مباشراً ، وابتكر لذلك فعلاً فى اللغة الألمانية هو Einfuehlen ، وقال إن هذا الإحساس المباشر هو الحاسة التاريخية ، ولهذا فإن لفظ الحس أو الإحساس Das Gefuehl ، له عند هيردر معنى خاص، وهو ممن قالوا بأن المؤرخ الحق هو الذى يستطيع أن يكوِّن فكرة أو صورة عامة Gestalt عن العصر أو الشخص أو الظاهرة التى يكتب عنها . وقد حاول أن يثبت فى كتابه المسمى « آراء عن فلسفة تاريخ الإنسانية » أن التاريخ يخضع لقوانين كتلك التى تخضع لها الأشياء والطبيعة ، وقال إن التاريخ يسير فى خط تقدمى واحد ، وتحدث عمّا سمّاه التوازن الداخلى للجماعات ، وأن كل جماعة حية سليمة ينبغى أن تحافظ على هذا التوازن ، وأن الاضطرابات والفوضى وعهود الظلم والتأخر تنتج عن فقدان هذا التوازن ، وكان يؤمن بأن الإنسانية ستصل يوماً ما عن طريق العقل والتجربة إلى حالة من التوازن تستقر معها أسس العدالة والنظام .

وكان هيردر بعمله هذا فاتحاً لعصر جديد زاهر فى تأريخ العلم التاريخى ، انتهى باعتباره علماً قائماً بذاته له أصوله وقواعده وكراسيه وأقسامه فى الجامعات، والفضل الأكبر فى ذلك يرجع إلى ليوبولد فون رانكه Leopold von Ranke (١٧٩٥ ـ ١٨٨٦م) الذى عُمِّرَ فوق التسعين سنة ، عاملاً نشيطاً فى ميدان التاريخ، وهو من أوائل من قَصَروا جهدهم كله على التاريخ ، ووُصِفوا فى الغرب بأنهم مؤرخون .

ولد رانكه فى ٢١ ديسمبر ١٧٩٥م فى بلدة فيهى Wiehe فى مقاطعة تورينجن فى مملكة سكسونيا ، وتخصص أولاً فى الدراسات القديمة واللاهوت ، ثم دخل فى خدمة ملوك بروسيا ، وانتقل إلى برلين ، حيث عين أستاذاً مساعداً للدراسات القديمة فى جامعتها سنة ١٨٢٥م ، ثم أصبح أستاذاً ، وظل فى هذه الوظيفة إلى وفاته فى ٢٣ مايو ١٨٨٦م فى برلين .

كان رانكه عميق الإيمان بالمسيحية على المذهب اللوثرى (البروتستانتى)، وكان مثالياً على مذهب فيخته، وتأثر باتجاه هيردر نحو الاعتراف بالجانب الإنسانى (أى : البشرى) فى التاريخ، وقال بفكرة التطور العضوى للجماعات، وكذلك بأهمية العامل الفردى Das Inividualistische فى توجيه الأحداث ، ولكنه أنكر استخدام التاريخ للعظة والعبرة، وهو مذهب مؤرخى العرب ، ومعظم مؤرخى القرن الثامن عشر فى أوربا ، وقال إن التاريخ ينبغى أن يدرس لذاته ، لا كوسيلة للتعليم والتهذيب .

وأهم ما تميز به رانكه ودعا إليه قوله بأننا ينبغى قبل كل شىء أن نعرف الأحداث والأحوال الماضية كما كانت بالضبط، ودفعه هذا إلى الاهتمام بالوثائق ومخلفات الماضى اهتماماً بالغاً، فلكى نعرف عصراً ينبغى أن نراه فى الأصول التى كتبت خلاله لا تلك التى كتبت عنه، وأى شىء أصدق من الوثائق الرسمية ومكاتبات الدول والأفراد وسجلات الحكومات والكنائس والمذكرات الشخصية؟! وقد بلغ من حماس رانكه وتلاميذه لهذه الأصول أن انتشروا فى الأرض ينقبون فى كهوف المحفوظات، ورفوف الأديرة، باحثين عن الوثائق فى حماس جعل الدول والإمارات والكنائس وغرف التجارة وبيوت الأشراف تهتم بتلك الأضابير وتنظيمها ، فنشأ علم الوثائق، وأخذت قواعده تستقر، وقامت دور المحفوظات ومجموعات السجلات فى أوربا كلها، وأقبل طلاب التاريخ يدرسونها وكأنهم ـ كما قيل يومئذ ـ فيران تقضى الليل فى قضم صفحات الكتب، وكان كتابه الأول المسمى «تواريخ الشعوب اللاتينية والجرمانية»: «Geschichten der Romanischen und Germanuschen Voelker» وهو طراز جديد من التأليف التاريخى يقوم على الاعتماد على الأصول ، وقد بسط فيه رانكه آراءه التى ذكرناها ، ولكنه وقع فيما وقع فيه ابن خلدون عندما عجز فى تاريخه عن أن يطبق نظرياته التى بسطها فى « المقدمة » ، فقد كان ـ مثلاً ـ ناقداً حصيفاً لأصوله التى اعتمد عليها ، ولكنه كان شخصياً غير موضوعى فى الكثير من أحكامه ، وأنكر على هيجل تأملاته وتصوراته غير التاريخية ، ثم ملأ هو كتبه

بالتأملات والنظرات الخاصة ، ومن أكبر وجوه النقص فى تفكيره أنه فى حماسه للنظام البروسى لم ير الحد الفاصل بين سعى بروسيا نحو الوصول إلى القوة ، واستخدام هذه القوة للعدوان بعد ذلك . وقد رأى فى « الدولة» مفهوماً أخلاقياً شبيهاً بالكنيسة ، ووقع بذلك فى الانحراف الذى وقع فيه الكثيرون من مفكرى الألمان الذين تحمسوا للنظام البروسى ، واعتماده على القوة والنظام، حماساً يعتبر تمهيداً لقيام دولة الحديد والنار على يد بسمارك .

وكان اهتمام رانكه بالوثائق الرسمية ومكاتبات الدول سبباً فى اهتمامه الشديد بالتاريخ السياسى والعسكرى ، فلم ينتبه كثيراً إلى النواحى الاجتماعية والاقتصادية، وقد وجه معظم اهتمامه إلى قيام النظم السياسية الأوربية وما كان يقوم بينها من صراع، ولكن غاب عن ذهنه تماماً أن يفطن إلى أهمية قيام الدولة السلافية الكبرى ـ وهى روسيا ـ وتوسعها البطىء الذى سيجعل منها فى المستقبل أكبر قوة فى أوربا. وكان إيمانه شديداً بنظام المجتمع الألمانى الذى عاش فيه، والنظام البروسى الذى حكم ذلك المجتمع، فكان شديد الإعجاب بالطبقة الوسطى الألمانية ـ وهو منها ـ وكذلك بالطبقة الأرستقراطية الألمانية التى انتسب إليها فيما بعد. وهذا كله حال بينه وبين أن يقدر نظم المجتمعات الأخرى خارج أوربا ويفهم حضارتها، وإذا كان قد أجاد فهم تاريخ بروسيا فى الكتب التسعة التى كتبها عنه Neun Buecher Preussischer Geschichte (١٨٤٧ ـ ١٨٤٨م)، وتاريخ إنجلترا فى كتابه عنه Englishe Geschichte (١٨٥٢ ـ ١٨٦١م)، وكذلك تاريخ فرنسا فى كتابه Fransoesische Geschichte (١٨٥٢ ـ ١٨٦١م) فإنه لم يوفق فيما كتبه عن موضوعات تاريخية غير أوربية . ومثال ذلك مقاله عن محمد ﷺ الذى نشره فى المجلة التاريخية التى سنشير إليها ، وهو دليل واضح على قلة علمه فى ذلك المجال وقصوره عن إدراك حقيقة الإسلام ورسوله . وكذلك كان فهمه قليلاً للحركة الصناعية فى أوربا كلها وما كان لها من نتائج، ولم يكتب شيئاً ذا قيمة عن الولايات المتحدة الأمريكية.

ولكن الذى أعطى رانكه مكانه الكبير فى تاريخ علم التأريخ ، هو اهتمامه

بالوثائق ، والمنهج الدقيق الذى وضعه لتنظيمها ودراستها ، وكانت الوثائق تسمى بالدبلومات ، ولهذا فإن مدرسة رانكه تسمى بالمدرسة الدبلومية ، ومن الخطأ تسميتها بالمدرسة الدبلوماسية؛ فلا علاقة لعمله بالدبلوماسية بمفهومها الشائع اليوم . ومما يذكر له بالخير أسفاره المتعددة إلى بلاد أوربا لفحص مجموعات الوثائق وتقارير السفراء والمكاتبات الرسمية . وإليه يرجع الفضل فى إنشاء اللجنة التاريخية فى أكاديمية بافاريا للعلوم : Historische Kommission bei der Bayrischen Akademie der Wissenschafien فقامت هذه اللجنة بنشر الوثائق العامة ووثائق الدولة والمدونات والخطابات ، وعلى مثال هذه اللجنة أنشئت فى نواحى أوربا كلها هيئات قامت بهذا العمل فى كل ناحية ، فتهيأت السبل بذلك أمام المؤرخين ليقيموا دراساتهم على الأصول . وأنشأ كذلك «المجلة التاريخية السياسية» : Historische- Politische Zeitschrift فكانت من طلائع الدوريات التاريخية التى قامت ـ ومازالت تقوم ـ بالدور الذى نعرفه فى ميدان الأبحاث التاريخية.

والنظرية الأساسية التى جاء بها هى قوله بأننا ينبغى أن نصور الماضى كما كان بالضبط Wie es eigentlich gewesen، وهى غاية عسيرة كل العسر، لم يوفق إليها هو نفسه فى الكثير من كتبه، ثم إننا لا نعرف كيف كان الماضى بالفعل حتى نحكم إذا كان المؤرخ قد وفق إلى تصويره تصويراً دقيقاً أم لم يوفق، ولكن مذهبه هذا دفع بالمؤرخين إلى الانصراف عن التصورات المثالية أو التخيلية للماضى ، والبحث عن الحقيقة كيفما كانت على قدر ما تساعفهم ملكاتهم .

وكان رانكه كذلك مولعاً بتنسيق المادة التى يحصل عليها والبحث عن التوازن فى تصويره للحوادث أو المجتمعات .. ولهذا فإنه لم يوفق إلى فهم الثورة الفرنسية مثلاً؛ لأنه لم يجد فى حوادثها ذلك التوازن الذى كان يلتمسه دائماً.

وقد كان مغالياً ـ ولا شك ـ فى تقدير مهمة المؤرخ عندما قال فى مقدمته لكتابه عن تاريخ الأمم اللاتينية والجرمانية : « ولقد وُضِعتْ على عاتق التاريخ مهمة الحكم على الماضى ، وإفهام الحقائق لأهل الحاضر بما يعود بالخير على أهل

الأجيال القادمة ، وكتابى هذا لا يسمو إلى تحقيق هذه المطالب الرفيعة ، وكل ما يسعى إليه هو أن يعرض ما حدث فعلاً بالضبط كما كان بالفعل».

لقد كان لهذا المبدأ أثر سيئ فى أعمال الكثيرين من المؤرخين الذين تابعوا رانكه ، فجعلوا من أنفسهم قضاة للماضى وحكماء على أهله ، ومضوا يصدرون أحكاماً تضمنت خطلاً كثيراً ، وجعلت الكثير من هذه الكتب أشبه بالهراء ؛ لأن مهمة المؤرخ الأساسية ليست الحكم على الماضى وإنما فهمه ، وعند الفهم الصحيح للماضى تنتهى مهمة المؤرخ كمؤرخ ، فإذا تعدّى مهمته ونصّب نفسه قاضياً تعرّض للخطأ.

على أى حال يعتبر رانكه ـ بشخصيته وحماسه ونشاطه ودأبه على العمل ـ فاتح عصر جديد فى تاريخ التأريخ ، فقد نقل التاريخ من ميادين الأدب والفلسفة والتأملات إلى ميدان خاص به ، فتقررت بصورة نهائية مكانته كعلم له شخصيته وحدوده ومناهجه وأهدافه وفائدته ، وأقبلت الجامعات تخصص له الكراسى ـ عامة أولاً ، ثم مخصصة بعد ذلك ـ فأنشئ فى الجامعة الواحدة أكثر من كرسى للتاريخ ، وأنشئت دور المحفوظات ورتبت فيها الوثائق ، ووضعت تحت تصرف الباحثين ، وظهرت وظيفة خاصة جديدة هى وظيفة قيِّم المحفوظات Archivist ، بل أنشئت كما سنرى معاهد خاصة لعلم الوثائق ، وقد بلغ من تقدير الناس لعمل رانكه أن **قال اللورد آكتون أستاذ التاريخ الإنجليزى المعروف : «إن رانكه هو كولمبوس العلم التاريخى».**

ولا يمكن أن نغفل ذكر نيبوهر Barthold George Niebuhr فى هذا المجال؛ كان هذا الرجل دنماركى الأصل، ولكنه دخل فى خدمة الحكومة البروسية من سنة ١٨١٠م حيث عين محاضراً فى التاريخ فى جامعة برلين ، وفى تلك الجامعة ألقى سلسلة محاضرات عظيمة القيمة فى تاريخ روما نشرت فى مجلدين سنة (١٨١١ ـ ١٨١٢م) ، وقد أثبت فى هذين المجلدين ـ واعتماداً على الوثائق والسجلات ـ زيف مؤرخ كان له مقام كبير فى دراسات تاريخ الدولة الرومانية وهو: تيتوس ليفيوس Titus Livius وقد اتبع نيبوهر فى دراسته منهجاً غاية فى

الدقة والإحكام ، تمكَّن به من استخلاص الحقيقة من كل ما وقع تحت يده من وثائق ونقوش وسجلات وخطابات . وقد تأثر رانكه نفسه بمنهج نيبوهر فى الاستفادة الكاملة من المذكرات واليوميات والمراسلات الدبلوماسية ، وروايات شهود العيان ، وما إليها من المراجع الأصيلة المباشرة .

وعقب ذلك مباشرة قام المؤرخ الفرنسى فرانسوا جيزو Guizot (١٧٨٧ ـ ١٨٧٤م) ـ الذى أصبح وزيراً فيما بعد ـ بإصدار أوائل مجلدات مجموعة وثائق تاريخ أوربا فى العصور الوسطى المعروفة باسم : Monumenta Historiae Germaniae ، التى بلغت مجلداتها ـ فيما بعد ـ بضع مئات، ضمت مجموعة هائلة من الوثائق والمذكرات والمكاتبات ونصوص المعاهدات وما إليها . ثم قام المؤرخ الفرنسى أوجستان تييرى Augustin Thierry (١٧٩٥ ـ ١٨٥٦م)، بإصدار كتابه المعروف «تاريخ الغزو النورمانى لإنجلترا» (١٨٢٥م) معتمداً على الوثائق الأولى فحسب ، ومثقلاً بالهوامش وإشارات المراجع . وفى سنة (١٨٢١م) أنشئت فى فرنسا مدرسة الوثائق المعروفة باسم École des Chartes ، التى لا تزال إلى اليوم من أعظم معاهد أوربا لدراسة علم الوثائق والمخطوطات وما إلى ذلك ـ وكل هذه نتائج مباشرة للحركة التى أدخلها رانكه ونيبوهر على دراسات علم التاريخ .

ولم يقتصر عمل رانكه ونيبوهر ومدرستهما على تقرير أصول البحث التاريخى ومناهجه ووضع الأسس العلمية للنقد التاريخى، وإكمال تكوين التاريخ كعلم سَوِىٍّ قائم بنفسه مستقل الشخصية ، بل إنهما عملا ـ كما قال إيمرى نيف فى كتابه عن « شاعرية التاريخ » ـ على توكيد مغزى الأحداث واستمرارها، وإدراك حركة التطور التاريخى وفهمها »[1] .

وقد اتهم رانكه ـ من بعض معاصريه ومؤرخى الجيل التالى عليه ـ بأنه جرَّد التاريخ من شاعريته ، وجعله سجلاً جافاً للحقائق المدعمة بهوامش ضخمة من

---

(1) Emery Neff, The Poetry of History (1947) P. 137 .

الإشارات إلى الأصول والمراجع ، وأخذ عليه أيضاً إيمانه القومى المتعصب بالدولة البروسية وأسلوبها المحافظ فى الحكم ، ومن هنا كان رانكه معادياً لكل حركات التحرر التى قامت فى أوربا فى عصره ، ومن الواضح أن محافظته حالت بينه وبين فهمها ، ومن هنا كانت الحملة عليه شديدة من جانب مؤرخين مثل درونج Duering ، ولورنتس Lorentz ، ولامبرخت Lamprecht ، ويوهان جوستاف درويسن Johann Gustav Droysen (١٨٠٨ ـ ١٨٨٤م) ، الذى وصف موضوعية رانكه بأنها سلبية .

ولكن أكبر ناقدى رانكه كان يعقوب بوركهارت Jacob Burckhardt (١٨١٨ـ١٨٩٧م)، وهو من أصل سويسرى ، ولكنه تتلمذ لرانكه وتخرَّج عليه فى برلين، وقد نفر من جمود رانكه وقضائه على الجانب الشاعرى من التاريخ . وبلغ من استنكاره لمذهب رانكه هذا أن رفض أن يتولى كرسى التاريخ بعده فى جامعة برلين ، ثم قام بتأليف ثلاثة من أحسن ما كتب فى التاريخ على المذهب الجديد وهى :

« عصر قنسطنطين الكبير Die Zeit Konstantin des Grossen » (١٨٥٣م).

و«حضارة عصر النهضة فى إيطاليا Die Kultur der Renaissance in Italien» (١٨٦٠م).

و«تاريخ النهضة فى إيطاليا Die Geschichte der Renaissance in Italien » (١٨٦٨ ـ ١٨٧٣م) ، ثم أتبعها بكتابه المشهور:

« تأملات فى التاريخ العالمى Weltgeschichtliche Betrachtungen » ، وكلها كتب تجمع بين المنهج التاريخى الدقيق إلى جانب الإحساس الإنسانى والجمالى .

وجدير بالذكر أن آدم ميتز الذى كتب كتاب:

« نهضة الإسلام Die Renaissance des Islams» الذى اشتهر عندنا بترجمته العربية التى عملها د. محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ونشرها باسم « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع » ، هذا الرجل كان تلميذاً لبوركهارت، وهو سويسرى مثله ، وقد كتب كتابه على مثال كتاب أستاذه عن تاريخ عصر النهضة فى إيطاليا.

وقد أشرنا إلى بعض ممثلى هذه الحركة الجديدة فى فرنسا من أمثال جيزو وتيرى، ولكن أكبر أولئك الممثلين وأبعدهم أثراً كان جول ميشيليه Jules Michelet (١٧٩٨ ـ ١٨٧٤م) ، الذى جمع إلى ضبط المدرسة الجديدة ودقتها وقدرتها على الاستفادة من المراجع روحاً شاعرية رومانتيكية، وحماساً قومياً يساير حركة الثورة الشعبية التى استمرت فى فرنسا طوال القرن التاسع عشر . لقد اشتهر ميشيليه بتاريخه المطول لفرنسا الذى يقع فى سبعة عشر مجلداً (١٨٣٣ ـ ١٨٦٧م)، ويعتبر ـ دون شك ـ من أعظم الأعمال العلمية فى تاريخ التأريخ. ولكن جهود ميشيليه فى إصلاح مناهج علم التاريخ فى المدارس الثانوية لا تقل أهمية عن ذلك ؛ لقد تولى ميشيليه التدريس فى مدرسة المعلمين العليا فى باريس L'Ecole Normale ، وفى السوربون وفى الكوليج دى فرانس Collége de France ولكن ذلك لم يصرفه عن تأليف كتب مختصرة فى التاريخ لينتفع بها المدرسون فى المدارس ، مثل : «مختصر للتاريخ الحديث Précis de L'Histoire moderne» (١٨٢٧م)، «ومقدمة للتاريخ العالمى Introduction à l'histoire universelle» (١٨٣١م)، وكلها مؤلفات كان لها أبعد الأثر فى وضع الأسس للكتاب المدرسى فى مادة التاريخ .

والخلاصة أن أولئك الأفذاذ نجحوا فى وضع علم التاريخ وضعاً جديداً ، ووفقوا فى إقامة منهجية البحث فى التاريخ على أسس علمية جديدة بالغة الدقة والضبط ، دون أن تجرِّد التاريخ من جانبه الأدبى الذى يُعَبَّر عنه بعبارة « شاعرية التاريخ » ، فلم يعد هناك شك فى علمية التاريخ ، ولم يعد هناك كذلك سبيل لكتابة تاريخ صحيح ، دون اتباع قواعد المنهجية التاريخية الدقيقة .

***